الشعر المصري في مائة عام

١٨٥٠ — ١٩٥٠

الدور الأول

١٨٥٠ — ١٨٨٢

٣

١ — معانيه

ذكرنا أن المدح قد احتل الجزء الأكبر من دواوين الشعراء في ذلك العصر. ولم يكن في هذا المدح معنى مبتكر، ولا خاطر جديد، ولا فكرة مخترعة، ولا تشبيه محدث. بل ردد الشعراء المعاني القديمة التي سبقهم إليها الأقدمون. ولم يحسنوا أداء هذه المعاني كما أحسن السابقون. فتراهم إذا مدحوا ملكا شبهوه في العدل بكسرى، وذكروا عجز قيصر عن البلوغ إلى مرتبة الممدوح. فالساعاتي يقول:

رفع القواعد من دعائم دولة
عزت به فنظيرها لا ينظر
قد طاولت بالعدل كسرى واعتلت
شرفا وقصر عن مداها قيصر

وصالح مجدي يقول في سعيد:

عدل كسرى وإن سما لا يساوي
عشر معشار عدل هذا السعيد
قيصر الروم عزمه في قصور
عند صدر مؤيد وسعيد

فهؤلاء الشعراء كما ترى مقلون من المعاني لا يجدون أمامهم غير كسرى وقيصر. وإذا مدحوا الحاكم بالجود والكرم قالوا: بأن جود معن وحاتم لا يذكر بجانب كرم هذا الممدوح.

وكر عمرو لا يقاس بكر ممدوحهم، وذكاء إياس لا يساوي ذرة من ذكائه. وهم يكررون هذا في معظم قصائد المدح. فمن ذلك قول ابراهيم مرزوق في عباس الأول:

ما حلم أحنف؟ ما سماحة حاتم؟ ما كر عمرو؟ ما ذكاء إياس؟

وقال صالح مجدي مادحاً سعيد:

جود معن وحاتم لا يضاهي ذرة من شعاع جود سعيد
كر عمرو مكره لا تقسه غير في حربه بعبيد الأسود
هل يجاريه في الذكاء إياس وهو فيه إمام كل عميد

ولم يكتف صالح مجدي بإسناد هذه الصفات إلى سعيد واسماعيل، بل أسندها إلى كثير ممن مدحهم من الوزراء والأعيان.

وممدوحهم فريد ليس له مثيل. قال علي فهمي رفاعه:

راموا مراعاة النظير فلم يروا مثلا له هيهات عز مثيل

وقال أبو النصر:

إلى ملك الدنيا تود انتسابها
لما علمت في الكون أنك أوحد

وقال الليثي:

من في المعالي وعين الله تحرسه
في الكون يحكيه أو من ذا ينازعه

وهكذا جال الشعراء في دائرة ضيقة محدودة. فمدائح كل منهم قصيدة معادة ومدائحهم كلهم سورة مكررة.

* * *

وكانوا لإفلاسهم وضيق خيالهم يأتون بالمعنى القليل في عدة أبيات. ومثال ذلك ما جاء من قصيدة لمحمد سعيد يهنيء بها الخديو توفيق:

تهنى مصر بالبشرى وتسمو في العلا قدرا
وللتوفيق توفيق خديويها لها البشرى
بنيه الملك من عجب بشامخ مجده كبرا
تراه حين شرفه تبدى باسما ثغرا
وأصبح وهو منشرح لفرط سروره صدرا
لقطر النيل أفراح تم بأنسها القطرا
به كل الرعية في حبور زادهم بشرا
وقاهرة تبسم ثغر رها إذ لاح مفترا

فمعنى هذه الأبيات تافه جدا، ولا يستدعي هذا الاسهاب. فالشاعر يريد أن يقول: إن مصر تهنأ بالخديو الذي اختاره الملك وفرحت بتوليته البلاد وأهلها. وكان في استطاعته أن يأتي

بهذا المعنى فى لفظ موجز ، ولكن رغبته فى الإطالة مع خلو جعبته من المعانى اضطره إلى هذا الإطناب الذى لافائدة منه . وهكذا كان يفعل شعراء هذا الدور .

* * *

وإذا رثوا شخصاً بدأوا القصائد بذكر الموت الذى يختار من الناس الجياد ، ويصفى الكرام . وأسهبوا وأطنبوا بما لايخرج عن معنى هذين البيتين :

الناس الموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجيـاد

أو يشيرون إلى كأس المنون التى تدور على البرية فيشرب منها كل إنسان . ويختمون الرثاء بذكر الحور العين وما يلقـاه الميت فى الجنة من مظاهر النعيم .

ومثال ذلك قول أحمد عبد الغنى فى رثاء عبد الله فكرى :

فأحله الرحمن أعلى جنـــة
وأحله فيهـــا وقد أعلاه
والحور والولدان قد فرحوا به
واستقبلوه بالسرور وناهوا

وقول أبى النصر فى رثاء أحد العلمـــاء :

قله البشارة حيث حل بروضة فيحابها للسلم طيب عاطر
والحور فى دار البقا لقدومه فى الانتظار وبشرها متبادر

وقوله فى رثاء طوسون بن سعيد :

فأنعم بروضـة تبرك الفيحا وطب
وأنس بما قدمت من حسـنات
ولسوف تمنح مايسر من الرضا
مابين حـور ثم مقصورات
بشرلك فى دار النعيم بمشهى ماتشتهى من يانع الثمرات
وبك الحدائق تزدهى أنوارها وإليك يهدى عاطر النفحات
ورحبة المأوى تفوز بما تشا من فضل ربك واسع الرحمات

فمن هنا نتبين كيف كان الشعراء يشتركون مما فى الوقوع على هذه المعانى . وهذا أكبر دليل على ضيق المجال أمام هؤلاء الشعراء .

* * *

وإذا وصف أحدهم اختراعا حديثاً ظهر عجزه واضطرابه . ومثال ذلك قصيدة لصالح مجدى فى وصف وابور سعيد مطلعها :

أمدينة من فوق لج المـاء تجرى بأبهج منظر وبهاء
أم هذه إرم بدت رعمادها مسبوكة من فضة بيضاء
أم ذاك وابور المسرة مده صدر البرية أسعد السعداء

فشبه السفينة البخارية بمدينة ، ثم شبهها بإرم ذات العماد وهى مدينة كذلك . ثم هوى من بعد ذلك من شاهق فذكر « وابور المسرة » مع أن الصورة التى يتركها فى الذهن « وابور المسرة » لاتضارع الصورة التى تتركها إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وذكر كلة « بيضاء » بعد « الفضة » لغو لأن لون الفضـة معروف . ثم شبهها بعد ذلك بالفلك . قال :

فكأن هذا الفلك فى تنظيمة فلك به تسرى نجوم سمـاء

والذى أوحى إليه بهذا التشبيه هو الجناس بين الكلمتين . والحقيقة أن وجه الشبه معدوم بين السفينة وبين الفلك الذى هو دائرة وهمية تسير فيها النجوم . وذكر « سماء » بعد « نجوم » لغو لاطائل وراءه .

ثم قال :

وكأنه فى النهر عند مسيره برق يقصر عنه طرف الرائى

ثم قال بعد ذلك بأبيات :

فإذا تصدى للسباق غدونه وابور بر طار فى البيـداء

والاضطراب هنا ظاهر . فهذا الوابور إذا سار سيراً عاديا فهو يشبه البرق ، وإذا تصدى للسباق وجرى بأقصى سرعة كان أعظم من وابور البر . فأنت ترى أن الشاعر قد انتقل من صورة

العدد القادم
هو
العدد الممتاز
فترقبوه يوم صدوره

رائعة في قوله « برق يقصر عنه طرف الرائي » إلى صورة ضعيفة في قوله « وابور بر طار في البيداء » .

ويلاحظ أن الشاعر حينما أراد أن يصف وابور البحر وقف أمامه حائرا متسائلا عن حقيقة أمر هذا الشيء الذي يراه . أهو مدينة أم إدم ذات العماد أم وابور المسرة ؟ وهذه الحيرة في إدراك كنه بعض المخترعات الحديثة قد عبر به كل من تصدى لوصفها . فقال رفاعة من قصيدة في وصف وابور البحر :

المقل في الوابور حار تبقى الجواب فلا يحير

وقال عبد الله نديم في وصف القطار :

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطود بالبخار مسيرا

ثم إنهم خلعوا على « وابور البر » الصفات عينها التي خلعوها على « وابور البحر » . مثال ذلك قول رفاعة في وابور البحر :

سب وفي الأحشاء نار شوقا إلى القمر المنير

وقول عبد الله نديم في وابور البر :

دوما يحن إلى ديار أصوله بحديد قلب بالنهيب تسعرا

وقد يتعرض أحدهم لوصف القطار فيوازن بينه وبين وسائل المواصلات القديمة . ومثال ذلك قول عبد الله فكري :

ثم امتطينا للسويد ركائبا لا الركض يتعبها ولا التسيار
تسعى على عجل إلى غاياتها كالماء ساعد جريه التيار
سرع الخطا لا السوط حل بجلدها يوما ولا شدت بها أكوار
تذر الرياح إذا جرين وراءها حسرى طلائع جريهن عثار

يقول الشاعر إنه استقل في سفره ركائب لا يدركها كدولا إعياء . وهي تجري مسرعة دون حاجة إلى سوط أو رحال يشد عليها . وفي هذا تعريض بالناقة التي أكثر الشعراء من وصفها في العصور القديمة .

وكانوا يستوحون من اسم الممدوح بعض المعاني . ومثال ذلك قول أبي النصر يمدح سعيداً .

هم رجال أحرزوا أسعادهم كيف لا والسعد في اسم السعيد

فالشاعر قد أتى في هذا البيت بإسعاد وسعد وسعيد .

وما فعل ذلك إلا لأن الممدوح يسمى سعيداً . فالجو الذي يشيع من اسم « سعيد » قد أمل على أبي النصر هذا البيت .

وقال السيد أباظة مشيراً إلى الأنباء الواردة بقدوم الخديو اسماعيل

وما هي اسماعيل صبرى ابعدها ولكنها اسماعيل بالنصر آتيا

فصدر البيت قد صنع خصيصاً ليظفر الشاعر بالجناس بين « أسماعيل » و « اسماعيل » .

وقال عبد الله فكري في الخديو توفيق :

بور تلألأ في جبين موفق للحسن في توقيده أسرار

والبيت كله من وحي اسم الممدوح .

وكانوا يستوحون المعاني كذلك من أسماء المدن التي يذكرونها في شعرهم . ومثال ذلك قول عبد النجار أحد شعراء المرابيين منددا بمن تعاون مع الانجليز من المصريين .

في بور سعيد وغيره قد خنتم وفعلتم للانجليز أمورا

فاستوحى من اسم بور سعيد معنى هذين البيتين .

بور لكم وسعيد طالع وقتنا ولكم بذا يوم يكون عسيرا
ساري بسعد الفال شعري ناطقا ولرب أشعار تكون جفورا

هذا ما يمكن أن يقال عن معاني الشعر في هذا الدور . ؟

محمد سيد كيلاني

وزارة العدل

تعلن عن فقد دفتر الزواج رقم ٢٨٩٤٨٥ بغير استعمال وبه عدد ٣٠ رصيد و ٦٠ براءة بيضاء . ودفتر الطلاق رقم ٢٩٦٠٨ المكتوب من أوراق رصيده ثلاثة فقط وبه ٢٧ رصيدا و ٥٤ براءة بيضاء بغير استعمال — عليه الشيخ عبد الستار عبد الكريم مأذون عرب الجهة التابعة لناحية التالية مركز القوصية .

فكل من يعرض عليه هذان الدفتران أو رصيد أو براءة منهما أو عثر عليهما بأي الطرق أن يعلم أنه لا قيمة لهما وأن إستعمالهما يعد تزويرا يعرض مستعمله للمحاكمة الجنائية . ٣٧٤٩